نوبل ٢٠٠٤
١

ألفريده يلينيك :
سأداعب اللغة إذا أمسكت بها

تقديم

ألفريده يلينيك (مواليد ١٩٤٦) الفائزة بنوبل للآداب ٢٠٠٤ غير معروفة، تقريبا، خارج العالم الناطق باللغة الألمانية، ففي ألمانيا يتجاوز عدد النسخ المباعة من رواياتها مائة ألف نسخة، بينما لا يزيد عدد النسخ المباعة من رواياتها المترجمة (وعددها أربع روايات) إلى الإنكليزية عن بضع مئات من النسخ في العام.

ولعل حقيقة كهذه تفسّر حجم الدهشة التي اعترت عددا يصعب حصره من الناشرين، ونقّاد الأدب، ومن القرّاء، في مناطق مختلفة من العالم. فهي شبه مجهولة في العالم، وحتى في بلادها تختلف المواقف بشأنها، بين من يرى فيها استكمالا لتقاليد الصدق الأدبي، والنقد الاجتماعي، التي عرفتها النمسا قبل الحرب العالمية الثانية، وبين من يرى فيها الدليل الأبرز على الأدب والفن الهابطين.

وربما نتمكن من العثور على مبررات إضافية بحكم الوظيفة الاجتماعية ليلينيك في النمسا. وهي وظيفة تنطبق عليها، للوهلة الأولى، كل مواصفات الالتزام. فهي تنتمي إلى جيل الثورة

الطلابية التي قضت مضجع القارة الأوروبية في العام ١٩٦٨ ، وقد شاركت في أحداثها، كما انخرطت في صفوف الحزب الشيوعي لفترة قصيرة من الوقت، وخاضت معارك ضد اليمين، والنازية الجديدة في النمسا، كما وقفت بحزم ضد الحرب الأميركية على العراق، وكرّست آخر أعمالها المسرحية في العام ٢٠٠٣ للتعبير عن رفضها لهذه الحرب.

ومع ذلك، يصدر هذا الالتزام عن نزعة فوضوية في أغلب الأحيان، وعن انحياز للضعيف بتعبيراتها، إذ لا يمكن كتابة الأدب عند الوقوف إلى جانب القوي. وهذه النزعة الفوضوية يعززها ميل واضح لإبداء تحفظات بشأن البشرية ككل، والتعبير عن ميول انعزالية، تجرّد فكرة الالتزام من الدلالات التبسيطية المصاحبة لها في أغلب الأحيان، حيث لا ينجو الضعيف من النقد والتفكيك.

كل ما تقدّم يبقى هامشيا، بالتأكيد، مقارنة بالمنجز الأدبي ليلينيك. وقد مارست منذ أوائل السبعينات كتابة الشعر، والدراما الإذاعية، والروايات، والمقالات، والمسرحيات، والترجمة حيث نقلت العديد من الروايات من الإنكليزية إلى الألمانية.

والناظم لأعمالها الأدبية يتمثل في اتجاهين:

أولا، ممارسة التجريب، واللعب على الكلمات، وبالكلمات، وعمل نوع من الكولاج الروائي الذي يمزج بين لغة الإعلانات، والشعارات، والسرد، ومقتطفات من مانشيتات الجرائد. وقد اتضحت نزعة يلينيك التجريبية منذ عملها الروائي الأوّل "مايكل: كتاب أطفال لمجتمع طفولي"، وحاولت في "براءة لا محدودة" تطبيق تعريف الفرنسي رولان بارت للأساطير الاجتماعية، كما تتجلى في الممارسة الإعلانية والدعائية، ووسائل الأعلام في المجتمع الحديث، على المجتمع النمساوي.

ثانيا، ممارسة الهجاء، وخاصة بتحويل خطاب الذكر الأوروبي الأبيض إلى موضوع دائم للنقد، وكتابة أعمال تصوّر الآليات الاجتماعية-الاقتصادية، ودورها في حياة الأفراد، إلى جانب تصوير صراع القوة بين الذكور والإناث، ومحاولة كشف الطبيعة القومية، العنصرية، لمجتمع أوروبا الغربية.

وقد فعلت ذلك في روايات مثل "النساء كعاشقات" و"شبق"، و"معلمة البيانو" من خلال لغة مكشوفة، وبذيئة في بعض الأحيان. ولعل في تصويرها لصراع القوّة بين الجنسين،

وتحفظاتها الواضحة على خطاب الذكر الأوروبي ما يفسر النظر إليها ككاتبة ذات نزعة نسوية راديكالية.

من اللافت للنظر أن ردة فعل يلينيك تجاه فوزها بنوبل للآداب تنسجم مع شخصيتها في الحياة العامة. فقد اعتذرت عن حضور حفل تسليم الجائزة لأن المناسبات الاجتماعية لا تناسبها، وأرسلت محاضرة نوبل المنشورة في هذا الملف في شريط مصوّر، كما رفضت اعتبار فوزها بالجائزة مكسبا للنمسا بالمعنى القومي.

ومن الواضح أن لدى يلينيك تحفظات حقيقية تجاه بلادها، خاصة تجاه الماضي النازي، وكذلك تجاه الاتجاهات اليمينية الجديدة. فقد وصفت النمسا ذات يوم بكونها "أمة من المجرمين"، كما هددت بمغادرة النمسا، قبل خمسة أعوام، إذا استمر هايدر في الحكم، وأوقفت عروض أعمالها المسرحية احتجاجا على وجوده في السلطة. ومن المنتظر أن تكتسب مواقفها العامة في قادم الأيام دلالة تتجاوز حدود بلادها، لما تضفيه نوبل من مكانة اعتبارية على حامليها.

محاضرة نوبل
الفريده يلينيك

هل الكتابة هي موهبة الالتفاف اللولبي، الالتفاف حول الواقع؟ يحب الإنسان أن يلف نفسه كاللولب حول شيء ما بالطبع، ولكن ما الذي يصيبني آنذاك؟ ما الذي يصيب من لا يعرف الواقع، فعلا؟ فالواقع منكوش الشعر إلى حد بعيد، ولا وجود لمشط يجعل الشعر منسدلا وصقيل القوام. يجري الكتّاب [في الواقع] لتجميع شعرهم بيأس في أسلوب ما، سرعان ما يقض مضاجعهم في الليل.

ثمة بعض الخلل في الطريقة التي يبدو فيها الواحد منهم. لذا، يمكن طرد الشعر المكدس بطريقة بديعة خارج بيته المصنوع من الأحلام مرّة أخرى، وإن يكن من غير الممكن ترويضه. أو قد يتدلى منهك القوى مرّة أخرى، ستارة تحجب الوجه، وما يكاد يفعل ذلك حتى يتم ضبطه. وقد يقف رغما عنه مصابا بالذعر بفضل ما يجري باستمرار. لا يمكن ببساطة تصفيفه، إنه لا يريد ذلك. ومهما حاولنا تصفيفه بالمشط الذي فقد اثنتين من أسنانه لن يقبل. وأحيانا، يبدو [بعد التصفيف] أسوأ مما كان عليه من قبل.

الكتابة التي تعالج ما يجري، تجري بين أصابع الإنسان كالزمن، ليست كالزمن الذي وقعت فيه وحسب، بل كالزمن الذي توقف فيه الحياة، أيضا. لن يفتقد أحد شيئا إذا توقفت الحياة، لا الوقت المعاش، ولا الوقت الميت، ولن يفتقد الميّت شيئا على الإطلاق. عندما يكون الإنسان منخرطا في الكتابة يجد الزمن طريقه إلى أعمال الكتّاب الآخرين.

وبما أنه الزمن، فإنه يفعل كل شيء في الحال، يجد طريقه إلى ما اكتبه، وما يكتبه الآخرون، يهب على الشعر الأشعث للآخرين كريح منعشة، حتى وإن كانت ضارّة، وإن هبّت فجأة، وبلا سابق إنذار، من جهة الواقع. ربما، عندما يصعد شيء ما لا يسقط سريعا على الأرض. الريح الغاضبة تهب، وتكنس كل ما في طريقها.

تأخذ كل شيء بعيدا، لا يهم إلى أين، لكنها لا تعيده أبدا إلى هذا الواقع الذي يفترض التعبير عنه. في كل مكان، ما عدا هناك. الواقع هو ما يدخل تحت الشعر، وتحت التنانير، وهو الذي: يجرفها بعيدا، وإلى شيء مختلف.

كيف يستطيع الكاتب معرفة الواقع، إذا كان الواقع ذلك الشيء الذي يدخل فيه، ويجرفه بعيدا، ونهائيا، إلى الهامش. ومن هناك يمكنه أن يرى أفضل من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يعد في مقدوره أن يكون في طريق الواقع.

لا مكان لديه هناك. مكانه، دائما، في الخارج. وما يقوله من الخارج، فقط، يمكن أن يصل إلى الداخل، وذلك لأنه يتكلّم بكلام ملتبس. وهناك يمكن العثور على اثنين، لا غير. اثنان بوجهين حقيقيين، يقولان على سبيل التحذير أن لا شيء يحدث. اثنان يترجمان [الواقع] في اتجاهات مختلفة، للوصول إلى قيعان غير سويّة، تكسّرت منذ زمن بعيد مثل أسنان المشط.

إما، أو. حقيقي أم زائف.

وعلى ذلك أن يحدث عاجلا أم آجلا، لأن القاع غير صالحة للبناء. وكيف للإنسان أن يبني فوق حفرة بلا قاع؟ لكن غير الصالح الذي يدخل مجال رؤية الكتّاب ما زال صالحا بالقدر الكافي لشيء ما يمكنهم أخذه أو تركه. يمكنهم أخذه، أو تركه، وهم يتركونه. لا يقتلونه، يرمقونه، فقط، بعيونهم المجهدة، لذلك لا يصبح اعتباطيا، بسبب هذه النظرة الغائمة.

هذه النظرة مصوّبة جيدا. كل ما تقع عليه هذه النظرة ينطق، حتى عندما يهبط غارقا إلى أسفل، ورغم أن أحدا لم ينظر إليه من قبل، ورغم أنه لم يقع تحت النظرة المتفحصة للجمهور، إلا أن كل ما تقع عليه النظرة لا يقول أبدا إنه كان يمكن أن يكون شيئا آخر، قبل سقوطه ضحية لتعريف وحيد. يقول ما لم يقل على نحو أفضل من قبل (إذ كان يمكن أن يُقال بصورة أفضل؟). والأشياء التي ستبقى غائمة، وبلا أساس. هناك الكثير ممن غرقوا فيها بالفعل حتى بطونهم. رمال متحرّكة، لكنها لا تحرّك شيئا. لا مبرر لها، لكنها ليست بلا قاع. فهي ما تحب، لكنها لا تُحب.

الهوامش في خدمة الحياة التي لا تحدث، بالضبط، هناك، وإلا لن نكون، أبدا، في معمعانها، ولن نكون في حالة امتلاء، امتلاء الحياة الإنسانية، وهي [الهوامش] في خدمة مراقبة الحياة، التي تقع، دائما، في مكان آخر. في مكان لا يوجد فيه [الكاتب] ولماذا نهين شخصا لأنه لا يستطيع العثور على طريق الأسفار، طريق الحياة، طريق رحلة الحياة، إذا كان قد حمله، وهذا الحمل ليس حملا لشخص، ولا يمت بصلة إلى أي نوع من أنواع الحمل، فهو للمصادفة السعيدة حمل الطريق، كالغبار على فردتي حذاء، تطرده الزوجة بلا شفقة، وإن كان أقل قسوة من الطريقة التي يُطرد بها الغريب على يد أبناء البلد.

أي نوع من الغبار هو؟ أهو إشعاعي النشاط، أم ينشط من تلقاء نفسه، أطرح مجرد سؤال، لأنه يترك خيطا غريبا من الضوء في الطريق؟ هل الطريق هي ما يجري بمحاذاته ولا يلقاه الكاتب مرّة أخرى، أم أن الكاتب هو ما يجري بمحاذاة الطريق، في الطرق الجانبية؟ لم يمت بعد، لكنه مع ذلك عبر الحد. سيرى من هناك الذين فارقوه، والذين فارقوا بعضهم، أيضا، سيراهم بكل تنوّعهم، ليتمكن من تمثيلهم بكل سذاجتهم، وليضعهم في قالب، لأن القالب هو الشيء الأكثر أهمية، وعلى أية حال، فإنه يراهم أفضل من هناك.

لكن هذا الشيء، أيضا، يحسب ضده، لذا تلك علامات بالطباشير، وليست ذرات مضيئة، تسم طريق الكتابة. وهي في كل حال علامات إلى الخارج تلك التي تظهر، وفي الوقت نفسه تحجب، وفي النهاية تغطي مرّة أخرى الأثر الذي وضعه بنفسه. لم يشهد على ذلك أحد أبدا، ومع ذلك فإن الإنسان يعرف ما يجري.

الكلمات هبطت من شاشة عرض، من وجوه يغطيها الدم، ويشوهها الألم، من الضحك، من وجوه مصطنعة، ذات شفاه منتفخة مقدما، أو جعلها المكياج كذلك، أو انتفخت من آخرين، قدموا الإجابة الصحيحة في امتحان لاختبار المعلومات، أو من منافقات بالفطرة، نساء لسن ضد شيء، ولا مع شيء، يقفن ليخلعن السترة كي ترى الكاميرا أثداءهن المشدودة حديثا، الأثداء التي كانت صلبة ذات يوم، وكانت مملوكة لرجال. علاوة على ذلك، أي عدد من الحناجر، التي يخرج منها الغناء كالتنفس الكريه، لكنه أعلى صوتا.

ذلك ما يمكن أن يُرى على الطريق، إذا كان الإنسان ما زال فيها. يخرج الإنسان من الطريق، ربما يراها من بعيد، حيث يبقى وحيدا، ويشعر بالغبطة لأنه يريد أن يرى الطريق دون أن يمشيها.

هل صدرت ضوضاء عن الطريق الآن فقط؟ أتريد أن تلفت الأنظار بالضوضاء، لا بالأضواء، والناس الصاخبين، الأضواء الساطعة؟ هل الطريق التي لا يستطيع الإنسان أن يمشي فيها تخشى ألا يمشى فيها بعد الآن، رغم أن العديد من الخطايا تُرتكب باستمرار، والتعذيب، والهجمات الوحشية، والسرقة، والسلوك المهدد، والتهديد المطلوب في إنتاج مصائر عالمية ذات معنى؟

لا فرق بالنسبة للطريق، فهي تحمل كل شيء بثبات، حتى وإن كان بلا أساس. بلا أساس. على أرض ضائعة. يقف شعري على أطرافه، كما ذكرت، ولا وجود لمستحضر للتصفيف، يرغمه على الاستقرار مرّة أخرى. ولا استقرار في نفسي، أيضا. لا شيء فوقي، ولا شيء فيّ. عندما يكون الإنسان في الطرق الجانبية يكون مستعدا، دائما، للقفز قليلا، وقليلا مرّة أخرى على الهامش حتى يصبح في الفضاء الفارغ، المحاذي للطرق الجانبية. الطرق الجانبية حلبت هامشها التافه معها، الهامش المستعد في كل وقت، الذي ينفتح واسعا، لإغراء الإنسان بالابتعاد أكثر [عن الطريق] الإغراء بالخروج إغراء بالدخول.

رجاء، لا أريد أن تضيع الطريق من ناظري الآن، الطريق التي لست فيها. وأريد، أيضا، وصفها بإخلاص، وقبل هذا كله، بدقة، وصدق. وإذا كنت أنظر إليها في الواقع، عليها أن تفعل شيئا من أجلي، أيضا. لكن هذه الطريقة لا توفر شيئا بالنسبة لي، وتترك شيئا لي.

ما الذي تبقى لي هناك؟

فأنا محرومة من أن أكون في طريقي، ولا أستطيع تمييز الطريق على الإطلاق. أنا في الخارج، بينما أحاول ألا أخرج. وهناك، أيضا، يجب بالتأكيد أن أحصل على حماية ضد حيرتي الذاتية، وضد التباس الأرض، التي أقف عليها، فهي تجري لتتأكد ـ ليس فقط لتحمي لغتي القائمة إلى جانبي ـ ولتفحص ما إذا كنت أقوم بالشيء الصحيح، ما إذا كنت أصف الواقع كما يجب، أي بطريقة خاطئة، لأنه يستحق أن يوصف بطريقة خاطئة، دائما، ولا وجود لطريقة أخرى، بل بطريقة خاطئة حتى أن من يقرأ الوصف، أو يسمعه، يدرك فورا زيفه.

تلك أكاذيب. وهذا الكلب، اللغة، المفترض أن يحميني، والذي أحتفظ به لهذا السبب، يعقرني. المكلف بحمايتي يريد أن يعضني. حاميّ الوحيد ضد أن أوصف، اللغة، التي توجد عكس ذلك، أي لوصف شيء آخر لا أكونه ـ لهذا السبب أغطي الكثير من الأوراق ـ حاميّ الوحيد انقلب ضدي، ربما أحتفظ به ليتظاهر بحمايتي وفي الوقت نفسه يهاجمني. ولأنني اخترت الحماية

فيه عن طريق الكتابة، أصبح هذا الكائن، اللغة، في طريقي، الكائن الذي يبدو بمثابة ملجأ آمن في الكلام، وفي الحركة، ينقلب ضدي. ولا عجب، أنني لم أثق بهذا الكائن، أبدا. أي نوع من التمويه هذا الذي لا يجعل الشخص غير مرئي، بل يزيد من وضوح معالمه؟

أحيانا، تجد اللغة نفسها في الطريق بالخطأ، لكنها لا تخرج. عملية الكلام مع اللغة ليست اعتباطية، لكن الكلام مع اللغة، سواء أحببنا أم كرهنا، اعتباطي رغم إرادتنا. اللغة تعرف ما تريد. وهذا من حسن حظها، لأنني لا أعرف ما أريد، لا، لا أعرف أبدا. الكلام، الكلام عموما يبقى الكلام هناك في الوقت الحاضر، الكلام لا يتوقف، كلام بلا بداية ولا نهاية، ولكن لا وجود للمخاطبة. هكذا، إذا، نعثر على كلام هناك، في كل مكان يقيم فيه الآخرون، لأنهم لا يريدون أن يتريثوا، لديهم كثير من المشاغل. هم، فقط، هناك، ولست أنا. اللغة، فقط، تبتعد عني أحيانا، في اتجاه الناس، ليس في اتجاه الناس الآخرين، بل في اتجاه الحقيقيين، في طريق واضحة المعالم (من يمكنه أن يضل الطريق هنا؟) تقتفي أثر كل حركة من حركاتهم كالكاميرا، لذلك، اللغة على الأقل، تكتشف ما هي الحياة، وكيف تكون، لأنها في الواقع ليست كذلك، لذا يجب وصفها، حتى إن لم تكن طريقة الوصف دقيقة.

فلنتكلم عن حقيقة أننا نحتاج لإجراء فحوصات طبية مرّة أخرى. سرعان ما نجد أنفسنا نتكلم بطريقة صارمة، كأننا نملك الخيار، خيار أن نتكلم أو نصمت. ومهما يحدث، اللغة وحدها تفارقني، أنا، نفسي، أبقى بعيدة. اللغة تذهب. أنا أبقى، ولكن بعيدة. ليس على الطريق. وأنا عاجزة عن الكلام.

لا، ما زالت هناك، هل كانت هناك طوال الوقت، هل كانت ثقيلة، وعلى من هبط ثقلها؟ وما إن لاحظت وجودي حتى نهشتني على الفور، هذه اللغة. إنها تجرؤ على مخاطبتي بهذه الطريقة الآمرة، إنها ترفع يدها عليّ، إنها لا تحبني. ستحب، بسرور، الناس الطيبين على الطريق، الذين يسيرون إلى جانبها، مثل الكلب الذي تكونه تتظاهر بالطاعة. ولكنها في الواقع لا تطيعني أنا وحسب، بل ولا تطيع أيّ إنسان آخر. لا تخدم سوى نفسها. تعوي في الليل لأن أحدا لم يتذكر وضع أضواء إلى جانب هذه الطريق، التي تتزود بالطاقة من الشمس، ولا تحتاج إلى تيار من مقبس الكهرباء في الحائط، أو لأنها تبحث عن سبيل، عن اسم مناسب لسبيل. لكن لديها الكثير من الأسماء إلى حد أن من المستحيل مجاراة كل تلك الأسماء إذا أردنا التسمية.

أصرخ، في وحدتي، عندما أتعثر فوق قبور الراحلين، فبما أنني أركض بمحاذاتها، لا استطيع معرفة على ماذا، وعلى من أدوس، كل ما أريده الوصول إلى حيث توجد لغتي، حيث تبتسم لي بطريقة مصطنعة ساخرة. فهي تعرف أنني إذا سبق وحاولت العيش سرعان ما ستوقع بي، ثم تضع الملح على جروحي.

جيد. إذن، سأنثر الملح في طريق الآخرين، أرميه على الأرض حتى يذوب جليدهم، ملح خشن، وبذلك تفقد لغتهم قوامها الصلب. لكن اللغة كانت بلا قاع منذ زمن بعيد، وإذا لم تكن ثمة أرضية صلبة تحت قدمي، فإن لغتي لا تستطيع الوقوف، أيضا.

إذن دخلنا في صلب الموضوع. لماذا لم تبق معي في الطرق الجانبية، لماذا تركتني؟ أرادت أن ترى أكثر مني؟ هناك على الطريق العام، يوجد الكثير من الناس، وعلاوة عليه، يوجد الكثير ممن يثيرون الإعجاب، يدردشون بلطف مع بعضهم، أرادت أن تعرف أكثر مني. لقد عرفت، دائما، أكثر مني، صحيح، ولكن عليها أن تعرف المزيد. سينتهي بها المطاف إلى قتل نفسها إذ تقتات على نفسها، لغتي. ستفرط في متعة الواقع، وإذا أردنا الحق، لقد لفظتها، لكنها لا تلفظ شيئا، إنها تحسن الاحتفاظ بالأشياء.

لغتي تناديني، يصل صوتها إلى الطرق الجانبية، فأحب شيء إليها أن تنادي الناس في الطرق الجانبية، وهي لا تحتاج إلى التصويب الجيد، طالما تصيب الهدف، دائما، ولا تفعل ذلك بقول شيء ما، بل بالتكلّم عن "بساطة السماح بالكينونة" كما يقول هيدغر عن تراكل. إنها تناديني، لغتي تفعل، واليوم يستطيع كل إنسان القيام بهذا العمل، لأن الكل يحمل لغته هذه الأيام في جهاز صغير، ليتمكن من الكلام، ولماذا يتعلّم اللغة في وضع كهذا. لذا تناديني وأنا في المصيدة، تصرخ وتهجم.

ولكن هذا ليس صحيحا، فلغتي لا تنادي، لقد اختفت، أيضا. لغتي خرجت مني، لذلك كان عليها أن تنادي، أن تصرخ في أذني، بصرف النظر عن الجهاز الذي تصدر عنه، من كومبيوتر، من هاتف محمول، من كشك للهاتف، ومن المكان الذي تزعق فيه في أذني، لا فائدة من قول شيء ما بصوت مرتفع، لكنها تفعل ذلك. وما عليّ سوى أن أروي ما تقوله، إذ ستكون هناك فائدة أقل عندما يعبّر الإنسان في الحال عمّا يدور بخاطره لشخص عزيز، سقط في حادثة، ويمكن الاعتماد عليه لأنه سقط، ولن ينهض سريعا، للملاحقة، وأجل، لقليل من الدردشة.

لا فائدة. كلمات لغتي، هناك، في الطريق المُرضية (أعرف أنها مُرضية أكثر من طريقي، وهي في الواقع اللا طريق، لكنني لا أتمكن من رؤيتها بوضوح، ومع ذلك، أعرف أنني أريد أن أكون هناك) لذلك، أصبحت كلمات لغتي، على الفور، بعد فراقي، حالة كلام عام. لا ليست الكلام المباشر مع شخص ما، بل الكلام العام.

تصغي لغتي إلى نفسها إذ تتكلم على الملأ، تصوّر نفسها، لأن الكلام يمكن تحسينه في كل وقت، أجل يمكن تحسينه في كل وقت، وهو في الواقع يوجد هناك برمته ليتم تحسينه، وبالتالي استنباط قاعدة لغوية جديدة، وما أن يحدث ذلك حتى تتم الإطاحة بالقواعد اللغوية في الحال. ستكون هذه هي الطريقة الجديدة للخلاص، طبعا، أعني الخلاص.

إصلاح سريع. أرجوك، أيتها اللغة العزيزة، ألا تريدين أن تصغي ذات مرّة أولا؟ وبالتالي يمكنك تعلّم شيء ما، يمكنك على الأقل تعلّم قواعد الكلام. . علام الدمدمة، والزعيق، هناك؟ أأنتِ من يفعل هذا، أيتها اللغة، لأتمكن من قبولك بكرم مرّة أخرى. فكرتُ أنك لا تريدين أن تعودي إليّ على الإطلاق!! لم تكن ثمة علامة، تدل على رغبتك في العودة، ومع ذلك لو وجدت ستكون بلا فائدة، لأنني لم أكن لأفهم العلامة. لقد أصبحت لغة فقط لتبعدي عني، ولتضمني بأنني في الطريق. ولكن لا ضمانة لشيء. وليس من جانبك، أبدا، بقدر معرفتي بك. ولا استطيع حتى أن أعرفك مرّة أخرى.

تريدين العودة إليّ بشروطك الخاصة، ولن أقبل بك بعد الآن، ما الذي تقولينه في حالة كهذه؟ البعيد بعيد، البعيد ليس في متناول اليد، لذلك إذا جاءت وحدتي الدائمة، وجاء وجودي غير المتقطع في الطرق الجانبية، إذا جاءا بصفة شخصية لإعادة اللغة، ليتسنى لي العناية بها على أحسن وجه، وعادت أخيرا إلى البيت، إلى صوت جميل يمكن أن تنطق به، وسيحدث عندئذ أنها تستطيع بهذا الصوت، الذي يشبه صفارة إنذار زاعقة مولولة، تهب بها الريح، أن تضطرني إلى التراجع بعيدا عن الطرق الجانبية. بسبب ارتداد هذه اللغة عليّ، اللغة التي أنتجتها بنفسي، والتي هربت مني (أم أنني أنتجتها لهذا الغرض؟ لتهرب مني على الفور، لأنني لم أتمكن من الهرب من نفسي في الوقت المناسب؟).

أنا أُدفع أكثر فأكثر خلف الطرق الجانبية. لغتي تتمرغ بسعادة في بركتها الموحلة. القبر المؤقت الصغير في الطريق، وهي ترمق القبر في الهواء، تتمرغ على ظهرها، ككائن ودود يريد إرضاء

بني البشر، على غرار كل لغة محترمة، تتمرغ، تفتح رجليها، على فرض أننا سنربت عليها، وإلا ماذا؟ فهي تطمع في مزيد من الملاطفة. هذا الأمر يوقفها عن التحديق في الموتى، لذلك أنا أحدق فيهم بدلا منها، وبالطبع، أنا صاحبة الأمر في النهاية. ولا وقت لديّ لكبح لغتي، التي تتمايل الآن بلا حياة تحت أيدي المربتين.

هناك، فعلا، الكثير من الموتى، الذين يجب أن أراهم، وهذا تعبير تقني نمساوي يعني الموتى الذين يجب أن اعتني بهم، الذين يجب أن أعاملهم بصورة جيدة، ومع ذلك هذا الشيء معروف عنّا، ومعروف عنّا أننا دائما نعامل كل الناس بصورة جيدة. العالم ينظر إليها، ولا مبرر للقلق. ولا يجدر بنا الاهتمام بذلك. ومع ذلك بقدر ما يزداد هذا الطلب وضوحا، أي أن نحدق في الموتى، حتى يبدو لي أن قدرتي على الاهتمام بكلماتي تقل.

يجب أن أحدق في الموتى، بينما يمسد المتنزهون اللغة القديمة الطيبة، ويربتون عليها تحت الذقن، وذلك لا يجعل الأموات بعد الآن أحياء. لا يُلام أحد. حتى أنا، بحالتي الفوضوية، وشعري الأشعث، لا أُلام لأن الموتى يبقون موتى. أريد من اللغة هناك أن تكف عن جعل نفسها جارية تحت أيدي الغرباء، مهما كانت اللمسات لطيفة، أريدها أن تبدأ بالكف عن الطلبات، وأن تصبح هي الطلب، وألا تستجيب للمداعبة، وأن تعود في النهاية لي، لأن على اللغة دائما أن تتحدى، وإن كانت لا تعرف دائما كيف تفعل ذلك، ولا تنصت لي.

عليها أن تتحدى، لأن الناس يريدون تبنيها بدلا من تبني طفل، وهي محببة جدا، إذا أحبها الإنسان، لذلك لا يمارس الناس التحدي، فهم يقررون، ولا يردون على المكالمات، والعديد منهم، الذين تحطموا، يقطعون صلاتهم الاجتماعية. لذا، بقدر ما يزداد عدد الناس الذين يقبلون دعوة لغتي لحك بطنها، وشد جلدها، وقبول صداقتها بلطف، بقدر ما أتعثر بعيدا، حيث فقدت أخيرا لغتي لصالح أولئك الذين يعاملونها بشكل أفضل. أكاد أطير، أي كانت هذه الطريق على الأرض، التي أحتاجها لأسرع بالهبوط، وأين أذهب لأفعل ماذا؟ كيف أصل المكان، حيث أستطيع إخراج أدواتي من الحقيبة، وفي الواقع حيث استطيع وضعها في الحقيبة على الفور.

هناك في البعيد، يلوح ضوء ما تحت الأغصان، أهذا هو المكان حيث تتملق لغتي قبل كل شيء الآخرين، لتمنحهم إحساسا بالطمأنينة، فقط لتنال بدورها، في الحال، إحساسا بالطمأنينة؟ أم أنها تريد أن تعض مرّة أخرى؟ كل ما تريده هو العض، وذلك ما لم يعرفه الآخرون بعد، لكنني

أعرفه جيدا جدا، فقد عاشت معي لفترة طويلة من الوقت.

في البداية عناق، وهمسات حلوة بلا معنى لهذا المخلوق الذي يبدو أليفا، والذي يوجد منه في كل بيت، فلماذا يحضرون حيوانا غريبا إلى البيت؟ لذا، لماذا ينبغي على هذه اللغة أن تختلف عن كل شيء عرفوه من قبل؟ وإن كانت مختلفة، ربما من الخطر إدخالها إلى البيت.

ربما لا تأتلف مع لغة توجد لديهم بالفعل، وبقدر ما هناك المزيد من الغرباء الطيبين ـ الذين يعرفون كيف يكون العيش، لكنهم أبعد ما يكون عن فهم حياتهم، فهم يسعون وراء الملاطفة، لأنهم يجب أن يسعوا دائما وراء شيء ما ـ بقدر ما لا استطيع النظر بوضوح نحو الطريق إلى اللغة. أميال، وتزيد. ومن غيري يمكن أن يرى من خلال الأشياء، إذا كان لا يرى؟

الكلام يريد أخذ مكان النظر، أيضا. يريد أن يتكلم قبل حتى أن يرى. يتمرغ هناك، تلمسه الأيدي، تأكله الريح، وتربت عليه العواصف، يُهان بالإصغاء حتى يكف عن الإصغاء. حسنا، إذا، فليسمع الجميع، هنا، في الحال. من يريد ألا يصغي يجب أن يتكلم دون أن يُصغى له. الجميع لا ينال الإصغاء، تقريبا، رغم أنهم يتكلمون. وأنا يُصغي لما أقول، رغم أن لغتي لا تخصني، ولم أعد حتى أستطيع أن أراها.

يُقال الكثير ضدها. لذا لم تعد تملك الكثير مما ينبغي أن تقول عن نفسها. لا بأس. يُصغى إليها، بينما تكرر نفسها بتمهل، وفي مكان ما يضغط شخص على زر أحمر، فيقع انفجار هائل. لم يبق الكثير مما يُقال ما عدا أن أبانا، أي الفن، لا يعني أنا، رغم أنني في النهاية أب، أي أم للغتي، أنا أب للغتي الأم، كانت فيّ ولم يكن ثمة من أب هناك يمكن الانتساب إليه. غالبا ما كانت لغتي غير لائقة، وقد قيل لي ذلك بشكل واضح، لكنني لم أقبل التلميح. غلطتي. الأب ترك العائلة الصغيرة واللغة الأم. محقا كان. لو كنت في مكانه لما بقيت، أيضا. لغتي الأم تتبع أبي الآن، لقد ذهبت. إنها، كما ذكرت، هناك. تصغي للناس على الطريق. على طريق الأب، الذي رحل سريعا جدا. تعرف اللغة الآن شيئا لا تعرفه أنت، ولم يعرفه هو. وبقدر ما تزداد معرفة بقدر ما تقل كلاما.

إنها تقول شيئا ما باستمرار، طبعا، لكنها لا تقول شيئا وقد حان وقت رحيل الوحدة، فما من حاجة إليها بعد. لا يرى أحد أنني ما أزال في الداخل، في داخل الوحدة. لا ينتبه لي أحد. ربما يحترمني الناس، لكن لا أحد ينتبه. وكيف لي أن أضمن أن كلماتي هذه كلها ستقول شيئا

يمكن أن يقول شيئا.

لا استطيع القيام بذلك عن طريق الكلام. وفي الواقع لا أستطيع حتى الكلام لأن لغتي، للأسف، ليست في البيت في الوقت الحاضر. هناك في البعيد، تقول شيئا مختلفا، لم أطلبه منها، لكنها نسيت أوامري من البداية. لا تقول لي رغم أنها، في نهاية الأمر، تخصني. لغتي لا تقول لي شيئا، فكيف لها أن تقول شيئا ما للآخرين؟

ومع ذلك، ينبغي الاعتراف، بقدر ما لا تقول، تقول المزيد، وكلما ابتعدت عني، حينئذ تجرؤ على قول شيء ما، تريد قوله، ثم تجرؤ على عصياني، ومقاومتي. عندما ننظر إلى شيء ما نتحرك بعيدا عنه قدر ما نطيل النظر إليه. وعندما نتكلم نلحق به مرّة أخرى، لكننا لا نستطيع الإمساك به. فهو يتملص من القبضة، ويهرع نحو اسمه الخاص، الكلمات الكثيرة التي صنعتها، والتي فقدتها. الكلمات تبدلت بما يكفي، وسعر التبديل سيئ جدا، وهو في النهاية ليس أكثر من: شيء لا يصدق.

أقول شيئا، وسرعان ما ينسى من البداية. هذا ما تسعى اللغة جاهدة إليه، تريد الخلاص مني. ما لا يُقال يُقال يوميا، لكن ما أقوله غير مسموح. هذا وضيع، وضيع إلى حد لا يصدق. المحكي لا يريد حتى الانتساب لي. يريد أن يحدث، ليقول الإنسان: قيل، وحدث. ويرضيني حتى إن رفض الانتساب لي، وللغتي، ومع ذلك يجب أن ينتسب لي. كيف أضمن التصاقه بي حتى وإن كان بقدر صغير؟

لا شيء يلتصق بالآخرين في نهاية الأمر، لذا أعرض نفسي على اللغة، عودي، عودي، أرجوكِ. ولكن لا. فهي هناك في الطريق تصغي إلى الأسرار التي لا يفترض بي أن اطلع عليها، لغتي، وهي تنقل تلك الأسرار إلى آخرين، لا يريدون سماعها. أريد الاطلاع على تلك الأسرار، فهذا حقي، فعلا، ومع ذلك يمكن أن تغرق، إذا شئت، لكنها لا تقف بلا حراك، أو تكلمني، لا تفعل ذلك، أيضا.

فهي في الفضاء غير المأهول الذي يميّز نفسه، ويختلف عني، ومنها الكثير هناك. الخواء هو الطريق، وأنا على الطرق الجانبية للخواء. فقد تركت الطريق. قلت، فقط، أشياء بعد أشياء. وقيل الكثير عني، لكن معظمه غير صحيح. وحتى أنا قلت ما قاله الآخرون، وأقول الآن: هذا فعلا ما قيل. وكما قلت: لا يصدق. مضى وقت طويل منذ قيلت أشياء كثيرة كهذه. والمستمع

لا يستطيع استيعاب المزيد، وإن كان عليه الاستماع، ليتمكن من القيام بشيء ما.

في هذا الجانب، الذي يعني في الواقع إشاحة الوجه، حتى إشاحة الوجه عن نفسي، لا شيء يمكن أن يُقال عني، لا شيء يُقال، ولا وجود لمزيد يُقال. إنني أحدق دائما في اتجاه الحياة، ولغتي تدير ظهرها لي، لتتمكن من تعريض بطنها للمسات الغرباء، بلا خجل، لا تريني سوى ظهرها، هذا إن أرتني شيئا على الإطلاق.

وفي كثير من الأحيان لا تعطيني علامة، ولا تقول شيئا. أحيانا، لا أراها هناك، ولا أستطيع حتى أن أقول "كما قيل من قبل" فقد قلتها كثيرا، ولم أعد قادرة عليها، تعوزني الكلمات. أحيانا، أرى الظهر، أو باطن قدمين لا تستطيع الكلمات المشي عليهما، لكنها أسرع مني منذ وقت طويل، وحتى في الوقت الحاضر.

ماذا أفعل هناك؟ ألهذا السبب ابتعدت لغتي العزيزة عني بقدر معيّن؟ ولأنها ستكون بالطبع أسرع مني دائما، تقفز، وتجري، وعندما أذهب إليها من مكان عملي للحصول عليها، لا أعرف لماذا يجب أن أحصل عليها، فهي لا تحصل عليّ. ربما، تلك التي تهرب مني، تعرف! من لا تتبعني!! من لا تتبع شكل، وكلام الآخرين، ولا يمكنها فعلا الخلط بيني وبينهم.

هم هناك لأنهم الآخرون، ولا وجود لسبب آخر، وهذا مفيد بالقدر الكافي لكلامي. الشيء الأساسي أنني لا أفعل ذلك: الكلام.

الآخرون، هم دائما، الآخرون. لذا، لست أنا من ينتسب إليها، اللغة العذبة، أريد أن أداعبها كالآخرين، إن تمكنت من الإمساك بها